

مقدمة

شغف الإنسان منذ الأزل بالسفر والترحال، ولا نبالغ إذا قلنا إن أول كائن بشري سلك هذا المسلك هو سيدنا آدم عليه السلام وأما حواء عندما هبطا إلى الأرض بأمر من الله سبحانه وتعالى لاعمارها وقد خرجت من صلب آدم شعوب إنتشرت في شتى بقاع الأرض في هجرات متوالية، واستوطنوا بقاعا لم تطأها قدم إنسان من قبل وتفرقوا شيعا وتعددت ألسنتهم وألوانهم وأشكالهم، ومن ثم أخذت الرحلات طابعا جماعيا في بداية الأمر وإن تشعبت الأهداف فمن الرحلات ما كان هدفها البحث عن الرزق كهجرات البدو الرحل سعيا وراء الكلاء والماء، أو حب المغامرة والإستكشاف كالرحلات الإستكشافية التي قامت بها شعوب منطقة الخليج العربي والفينيقيون والفيكنغ وغيرهم، أو بهدف البحث عن مناطق أفضل للإقامة.

وبعد أن تبلور وعي الإنسان ونما حسه الحضاري أصبحت الرحلات هدفا لنشر الثقافة والمعرفة والأديان وأيضا التعلم. والواقع أن الترحال ليس مسلكا بشريا فقط بل هو مسلك كل كائن حي وغير حي! فهذه الطيور تقوم برحلات منتظمة وفي أوقات محددة إلى مناطق معينة وربما جاءت ممارستها هذه قبل وعي الإنسان بفائدة ومزايا الرحلات وليست الطيور فقط التي تمارس هذه العادة بل الحيوانات والأسماك بل إن الأمر تعدى إلى الكواكب والنجوم والأفلاك بدءا من الذرات الصغيرة في حركة لا متناهية في نظام أرنو لم يتوقف منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا.

إن السفر والترحال جزء من طبيعة الكائنات وليس ترفا أو هواية كما قد يتراءى للبعض، اللهم أولئك الذين جعلوه حركة إنتقال من مكان إلى آخر بلا هدف ولا معنى ولا

شمس منتصف الليل ◆ رحلات إلى فنلندا و النرويج وأيسلندا

فائدة سوى البحث عن المتعة الحسية المؤقتة التي تجلب على صاحبها وبالا عظيما. وغني عن القول مدى الفوائد الجمة التي تعود على الإنسان جراء تنقله، فكما هو بحث عن الرزق لجميع الكائنات، هو كذلك مهنة وهواية يزولها الكثير من الناس كرياضة السفن وملاحيتها وقمادة الطائرات وأطقمها وغيرهم كثير. كذلك هو بحث عن المعرفة والعلم ونشر المعارف والأفكار والمذاهب والأديان كما أسلفنا، وهو أيضا مغامرة يستهويها عدد كبير من الناس. يقول السعودي وهو أحد أشهر الرحالة العرب "ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نما إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار واستخرج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من مكمته".

ولم يكن مشاهير الرحالة العرب كالبيروني وابن جبیر وابن بطوطة والمقدسي هدفهم الرحلة لذاتها بقدر ما كان هدفهم تأليف الكتب والمصنفات عن تلك البلدان التي زروها ووصفوها وصفا دقيقا وتركوا لنا ذخائر لا تقدر بثمن عن عادات الشعوب وثقافتهم وأديانهم وأحوالهم وطرق معيشتهم ولم تكن تلك المؤلفات وصفا جافا لما تقدم، بل حوت على ذخائر نفيسة من الأدب الراقى لا يتسع المجال لذكرها هنا.

كثيرة تلك الأقوال في فوائد السفر والترحال لو تتبعناها جميعا لمألنا صحائف من كتب وأسفار ونكتفي هنا بقول الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون "إن السفر تعليم للصغير وخبرة الكبير".

وإذا أخذنا الرحلات بمعناها الحديث وهو الانتقال بوسائل النقل المختلفة من مكان إلى آخر فإننا نزعم بأن أولى الرحلات المنظمة في التاريخ البشري هي رحلة سيدنا نوح عليه السلام في فلكه العظيم الذي حمل معه أجناسا متعددة من الكائنات التي كانت تعيش على الأرض في ذلك العصر. ولعل أقدم الرحلات التجارية في تاريخ الإنسان تلك

شمس منتصف الليل ◆ رحلات إلى فنلندا و النرويج وأيسلندا

الرحلات التي كانت متبادلة بين شعوب منطقة الخليج العربي وغيرها من شعوب الأمم الأخرى التي كانت تسكن سواحل أفريقيا غربا، وبلاد الهند والسند شرقا ونقصد بها تلك الرحلات البحرية التي يرجع تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد.

ولاشك أننا نذكر جميعا في هذا السياق الرحلات الإستكشافية للرحالة والمكتشفين الأوربيين، كرحلة ماركوبولو، الذي يعتبر أول رحالة أوربي في العصور الوسطى يصل إلى مدغشقر والصين وسيبيريا وسواحل المحيط المتجمد الشمالي، ومن ثم رحلات الملاحين العظام أمثال فاسكودي غاما وكريستوفر كولومبس والكابتن كوك وماجلان وغيرهم. والملاحين العرب أمثال ابن ماجد والمهري والسيدي في وكذلك الرحلات العلمية وأبرزها رحلات عالم الطبيعة البريطاني "تشارلز داروين"، ونذكر كذلك الرحلات الدينية كرحلة سيدنا موسى وسيدنا عيسى وأمه، وأغرب الرحلات الإنسانية في التاريخ رحلة سيدنا يونس في بطن الحوت، أما رحلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ومنها إلى السماوات العلاء والتي يحتفل بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها كل عام تحت اسم الإسراء والمعراج، فهي أعظم الرحلات الدينية في تاريخ الإنسان.

فلا غرر إذن تكون للرحلات إسهامات عظيمة في مسيرة الحضارة الإنسانية منذ نشأتها وحتى الآن، فالإنسان الذي لم يكتف باكتشاف القارات والمحيطات والغابات والصحاري صعد إلى الفضاء أو ليس نزل الإنسان على سطح القمر هو أعظم رحلاته منذ هبوطه إلى الأرض؟؟ ولم يقف طموح الإنسان عند هذا الحد بل جند كل طاقاته لاكتشاف الكواكب الأخرى في رحلات مكوكية وصاروخية لا تنتهي أبدا. ولسوف يبقى الإنسان في رحلات لا تتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

شمس منتصف الليل ◆ رحلات إلى فنلندا و النرويج وأيسلندا

ولقد كان ولعي بالسفر والترحال شديدا منذ نعومة أظفاري، فقد كان والدي رحمه الله ملاحا مغامراً، وربانا متنقلاً بسفينته الخشبية العتيقة بين موانئ الخليج العربي وسواحل أفريقيا والهند والباكستان وغيرها، كذلك كان لتأثير أخوالي الذين إمتهنوا - وما زلوا - ركوب البحر حرفة لهم، شديدا على توجيهي الأكاديمي بعد ذلك، حيث إمتهنت الملاحة البحرية حرفة لي وهواية، فتحت لي آفاق السفر والترحال رحبة فسيحة.

ولقد زد من شغفي، حب التعرف على شعوب الأرض وعلى عاداتها وتقاليدها وثقافاتهما، هذا الحب الذي أورثني علاقات وصدقات لا حصر لها في شتى أقطار العالم.

ويسعدني غاية السعادة أن أقدم للقارئ أول كتبي في مجال الرحلات، وهو بالطبع ليس أول ما دونت من يوميات أثناء ترحالي وتنقلي في بحار العالم وأقطاره. والذي أرجو أن يضيف شيئاً جديداً للقارئ الكريم عن تاريخ وعادات وتقاليده شعوب ودول فنلندا والنرويج وأيسلندا، من خلال تجربة شخصية ومعايشة يومية للكاتب قضاها في تلك الديار مقيماً ومتجولاً سنين عدة.

ولقد رافقني في إحدى رحلاتي إلى تلك الدول وغيرها من دول العالم زميلي السيد فهد محمد المسلم الذي كان خير الرفيق والأنيس.

والله من دراه القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

عبد الرحمن المحمود